عود لابن النفيس

للدكتور حسن على إبراهيم

فى المؤتمر الماضى تكلمت عن ابن النفيس فأثار قولى ما يشبه الثورة بين أعضاء المؤتمر ويبدو أن ابن النفيس كانت له فى نفوسهم مكانةٌ عظيمة ، بل أقول ما يشبه التأليه هذا مع أنى كنت أقول كلامًا علميًّا بحتًا ولم أقصد الإساءة إليه فقد كان عالماً كبيرا فى زمانه ، وهو الذى تنبه إلى وجود دورة رئوية دموية وعرف أن الهواء يختلط بالدم فى الرئة ، وأن ذلك لازم للحياة منذ أن قال جالينوس إن الروح تدخل إلى الجسم مع كل شهيق ، والناس تعرف أن التنفس لازم لاستمرار الحياة ، ولكن ابن النفيس أراد أن يفسر كيف يحدث ذلك داخل الصدر وهنا وقع فى نفس الخطأ الذى وقع فيه كثير من الأطباء العرب وهو إعمال الخيال بدون تشريح أو تجربة هذا باستثناء أبى بكر الرازى ، وحنين بن إسحاق ، وأبى القاسم الزهراوى وابن زُهر .

فمن الواضح أن ابن النفيس لم يُشَرِّح القلبَ ولم يفتح حجراتِه وإلَّا لما قال إن البطين الأيسر يخرج منه شريانان لا شريان واحد وكلنا نعلم الآن أن هناك شريانًا واحداً يخرج من البطين الأيسر وهو الأورطى كما أنه جعل الشريان الرئوى يخرج من البطين الأيسر وقد أهمل تمامًا ناحية كبرى وهو أن الدم الفاسد يأتى من شتى أنحاء الجسم ويصب من خلال الوريد الأجوف السفلى والوريد الأجوف العاوى فى الأُذين الأيْمن ومنه إلى البطين الأيمن ومن هذا يخرج الشريان الرئوى حاملًا الدم الفاسد إلى الرئة ليتحد بالأكسجين ويتخلص من ثانى أكسيد الكربون ثم يعود دمًا أحمر نقيًّا من الرئة إلى الأُذين الأيسر ومنه إلى البطين الأيسر ويخرج من خلال الأورطى ليغذى سائر الجسم بالدم النقى . وابن النفيس

(*) ألقى هذا البحث فى الجلسة السادسة من جلسات المؤتمر المنعقدة يوم الإثنين ٨ من شعبان سنة ١٤١٠ هـ الموافق ٥ من مارس (آذار) سنة ١٩٩٠ م .

معذور لأنه نظر إلى القلب فرأى أن الشريان
الرئوى ظاهريًا يميل ناحية البطين الأيسر
فيخيل للرائى أنه خارج من البطين الأيسر
ثم إنه قال إن هناك جرمًا بين البطينين
يتلطف فيه الدم قبل أن يدخل البطين
الأيسر وهذا الجرم لاوجود له . والذى أثار
المؤتمر أكثر ما أثار هو أنى قلت إنه كان
يتخبط وقد عدلت هذه العبارة فى مقالى
إلى « أن ماقاله ابن نفيس لم يكن
صحيحًا بمقاييسنا الحالية » وربما كنت
واقعًا تحت تأثير شيء ، فقد كنت أقرأ
قولها بقليل أن الإدريسى هو أول من رسم
خريطة للكرة الأرضية وكل من عنده
أطلس جغرافى كبير يرى فى مقدمته صورًا
لخرائط للأرض منذ أيام اليونان وبطليموس
بل فى الواقع أن الخريطة التى رسمها
بطليموس للأرض أضبط من خريطة
الإدريسى ثم إن الإدريسى رسم أكثر من
خمسين جزيرة كبيرة بين أفريقيا والهند
فأين هى هذه الجزر ؟ كذلك كنت أقرأ
أن أحمد بن ماجد المعروف بأسد البحار
هو الذى علم فاسكودى جاما كيف يدور
حول رأس الرجاء الصالح وهذا غير صحيح

كما أنه هو الذى علم ماجلان بعد ذلك
كيف يدور حول الكرة الأرضية وقد قرأت
كتابًا كبيرًا عن رحلة ماجلان وهو ما كان
يكتب كاتب السفينة يومًا بيوم منذ تحضير
السفن حتى إبحارها . ثم ماجرى يومًا
بيوم حتى عودة سفينة واحدة فقط إلى
إسبانيا بعد رحلة استغرقت ثلاث سنوات
فلم أقرأ إشارة واحدة إلى ابن ماجد. وكان
كاتب السفينة التى يدون الوقائع دقيقًا
جدًا فكان يكتب يوم الثلاثاء كذا فى شهر
كذا فى عام كذا حدث هذا ثم يوم الأربعاء
وهكذا . وقد قال ماجلان كما تعلمون فى
جزر الفلبين وعادت سفينة واحدة فقط
من الثلاث بدون ماجلان . ولكن الطريف
فى هذه الرحلة أن يوم وصول السفينة كان
يوم الثلاثاء كذا تدون وقائع السفينة ،
ولكنهم وجدوا أنه يوم الأربعاء فى إسبانيا
هذا مع عدم الخطأ إطلاقًا فى التدوين وقد
شغلت هذه الظاهرة عقول العلماء مدة طويلة
فلم يكونوا يعلمون فى ذلك الوقت أن هناك
خطًا [illegible] خط الزوال الدولى وهو يعبر
المحيط الهادئ من الشمال إلى الجنوب وهو
خط ١٨٠° درجة والذى يعبر هذا

الخط من الغرب إلى الشرق إلى الغرب يكسب يومًا والذى يعبره كما فعل ماجلان من الشرق إلى الغرب يفقد يومًا من عمره .

اعذرونى لخروجى عن الموضوع ، والآن أعود إلى ابن النفيس ونحن كعرب كان عندنا علماء كبار لنا أن نفخر بهم ومنهم ابن النفيس طبعًا ولكن أرجو أن يكون ذلك الفخر فى حدود العلم والمعقول ، والآن لأُرضيكم سأعود إلى كتاب شرح تشريح القانون لابن النفيس ، فقد أصاب الرجل فى نواحٍ عدة أذكر منها بعض الأمثلة .

يقول تعليقًا على كلام ابن سينا : « كل عضو فلابد وأن يكون فى جُرمه خلل ينفُذ فيه الغذاء إلى عمقه وهذا الخلل إن لم يكن محسوسًا سمى مسامًا ويسمى ماكان خللُه من العظام كذلك مُصْمتا لأنه مُصْمت فى الحس وإن كان ذلك الخلل محسوسًا . فإما أن يكون متفرقًا فى جرم العضو كما فى عظم الفك الأسفل فيسمى ماكان كذلك من العظام هشا ومُتَخَلْخِلًا أو لا يكون متفرقًا فى جرمه ، بل مجتمعًا فى موضع واحد فيسمى ماكان العظم كذلك محوفًا

وكل عظم فإما أن يكون صغيرًا جدًّا ، كالأغلة ، بل كالعظام السمسمانية Scsamoid Bones فلا يحتاج فيه إلى تجويف محسوس لأن هذا لصغره يتمكن الغذاء من النفوذ إلى قعره بسهولة لقصر المسافة .

هذا الكلام فى جملته صحيح ولو أن لى — كطبيب يعيش فى القرن العشرين — تعليقاً وهو أن عظم الفك الأسفل من أقوى العظام وأن التجويف الذى فيه يسير بطوله تحت كل الأسنان والغذاء لا يأتى إليه من وسطه كما يقول ابن النفيس ، بل يأتى إليه من زاويته الخلفية على الناحيتين ومن العشاء المُحَاطِى الذى يغطيه والتجويف الذى فيه لم يوجد لكى يكون خفيفا فعضلات الفك من أقوى عضلات الجسم وهى تستطيع أن تحمل أضعاف أضعاف وزن الفك . فالتجويف الذى يوجد بداخل الفك بطوله يسير فيه الشريان الفكى ، والأوردة الفكية وهو المصدر الرئيسى لتغذية الفك والأسنان والقناة التى يسير فيها اسمها القناة الفكية Mandibular Canal

كذلك أعجبنى فى كلام ابن النفيس وجود العظام السمسمانية التى قال ابن سينا

أنها موجودة بين الأصابع وفى أوتار الأصابع أو بين السُّلاميات ، ولو أن إنكاره لها لم يكن مسبًّا على تشريح إذ قال إنه يعتقد أنها غيرُ موجودة وفى الواقع توجد عظمة سمسمية واحدة فى يد الإنسان داخل الوتر للعضلة القابضة للإبهام وهذا الكلام لن يتغير لأنه مبنى على التشريح الدقيق لآلاف الأيدى إلَّا إذا ظهرت فصيلة جديدة من البشر .

كما أحسن ابن النفيس عند كلامه عن العظم اللامى فى الرقبة Hyoid Bome فوصفه بأنه علاقة وهذا صحيح لأن كثيرا من عضلات الفك والرقبة تنشأ منه . وهناك عضلات خاصة لتثبيت العظم اللامى فمثلًا أهم عضلة لفتح الفم هى الذقنية اللامية Geno Hyoid Muscle فعند فتح الفم للأكل أو للتثاؤب مثلًا تعمل هذه العضلة وقد وجب عند هذا الشد من أسفل على العظم اللامى وإلَّا ارتفع إلى أعالى ولم ينزل الفك فتتقلص العضلات المرتبطة بالعظم اللامى من أسفل وتحفظه فى مكانه كما يعجبنى قوله التالى فى العظام وأنقله حرفيًّا :

والتجويف يقل إذا كانت الحاجة إلى الرقابة أكثر ويكثر إذا كانت الحاجة إلى الخفة أكثر هذا يُعْتبر بحسب الأمور .

أحدها : اختلاف نوع عظام البدن الواحد فإن عظم الساق يحتاج إلى الخفة أكثر من عظم الفخذ لأن حاجته إلى الحركة أكثر من حاجة عظم الفخذ

ثانيها : اختلاف الأبدان فى القوة فإن البدن الذى عضله ضعيف الحلقة يحتاج أن تكون عظامه أخف لِتُمَكِّن القوة الضعيفة ولا كذلك البدن القوى .

ثالثها . اختلاف الأبدان فى السن فإن الشيخ تضعف قوته عن تحريك الثقل ، فتحتاج أن تكون عظامه أخف وذلك يحصل بسبب تخلخل عظامه لقلة اغتذائها (هذه الظاهرة نسميها الآن تخلخل العظام فى الشيوخ Senile osteoporosis ولو أن سببها ليس قلة التغذى كما قال) .

رابعها . اختلاف نوع الحيوان ، فإن الحيوان الشديد البطش كالأسد يحتاج أن تكون عظامه شديدة القوة ، إنما يكون كذلك إذا لم يكن تجويفها كبيرًا . هذا

الكلام فى جملته صحيح وليس من المتطر بالطبع أن يعرف ابن النفيس الهرمونات المسئولة عن هذا .

أما عند كلامه عن عظام الجمجمة يقول مصححا ما قاله ابن سينا « الجواب . أما ما قيل عن الأمر الأول فإنا وإن سلمنا أن الأجراء التى يجب تخلخلها من عظم الرأس يَقِل قبولها للآفات الخارجية بما قلتم لكنها لا محالة شديدة القبول لمثل العفونة ونحوها وهذا كلام صحيح .

ويقول : « ولعل الذى رأسه من عظم واحد قد كان فاسد الذهن رديء الأخلاق لأجل احتباس الأبخرة الكثيرة فى دماغه » وهذا كلام غير صحيح لأن هذه الحالة تعرف الآن بتضيق الجمجمة Craniostenosis ولا توجد أبخرة تتصاعد من الدماغ لتحتبس ولكن فساد الذهن يأتى من نقص نمو المخ فى هذه الحالات

سادتى .. لن أطيل فالكتاب طويل جدًّا وهكذا يمضى ابن النفيس يصيب مرة ، ويخطئ مرة ، ولكنه مفكر عظيم بلا شك ويكفيه فخرًا أنه أصاب تمامًا فى كثير من المواضع ،

وقبل أن أختم كلامى أذكركم بما قلته عن ابن سينا فى أول مرة تكلمت عنه وعددت أخطاءه فقد قلت ترى ماذا يقول الأطباء بعد ألف سنة إذا قرأوا كتبنا التى نتداولها وندرسها الآن ؟ إنهم فى الغالب لن يفهموها وإذا فهموها فسوف يضحكون من جهلنا هذا إذا لم يقض الإنسان على نفسه بأطماعه وغبائه قبل ألف سنة بكثير .

إن عيب الأطباء القدامى أنهم لجأوا إلى التفكير البحت دون تشريح جيد ، أو تجربة والطب الحديث قام على التشريح الدقيق والتحارب والعلم الكامل بالكيمياء الحيوية ووظائف الأعضاء وهى أسس الطب الآن .

أيها السادة . أشكركم مرة أخرى لحسن استماعكم لهذا الموضوع الجاف وإنى عندما أتكلم عن الطب فإنما أقول كلامًا موضوعيًّا حياديًّا فأنا لا أحارب أحدًا أو أحابى الآخر وشكرًا .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

حسن على ابراهيم
عضو المجمع